

فصول من قصة الأرض"، مقال لسميح حمودة"

الأرض"، ضمن سلسلة مسودة مقال لسميح حمودة بعنوان "فصول من قصة نماذج، ويختص هذا مقالات تتناول الصراع على أرض فلسطين من خلال خمسة المقال بقضية أرض جبل كنعان.

سليم محمود - القدس

تهدف هذه السلسلة من المقالات معالجة جانب مهم من جوانب الصراع العربي الإسرائيلي وهو الصراع على الأرض الفلسطينية ، في محاولة لفهم تفاصيل عملية الاستيلاء الصهيوني على الأرض العربية الفلسطينية خلال فترة الانتداب البريطاني في أماكن محددة من فلسطين ، يتم بنوينا بناءً على الوثائق العربية المخرج بصورة واضحة المعالم منه صالة من أخطر مسائل الصراع ، تناولها العديد من الكتاب اليهود والعربيين في حينه نشرتها القليل من الكتاب العرب.

- ومن خلال دراسة غمة غاذج من ضحايا الأرض هي (١) جبل كنفان (٢) أراضي الغوارنة (٣) أراضي النضيات (٤) وادي الخوارث (٥) أراضي دير عمرو ، سنلمس ثلاثة من أبرز عناصر الموضوع وهي (١) الأسس التي اعتمدها الصيونيون في اختيار الأرض للاستيطان اليهودي . (٢) أوضاع المجتمع العربي الفلسطيني التي ساعدت على انتقال ملكية الأرض لليهود . (٣) دور الانتداب البريطاني في تسهيل استيلاء اليهود على الأرض .

(١)

أراضي جبل كنفان (١)

يطلق لفظ "جبل كنفان" على سلسلة الجبال المحيطة بمدينة صفد من الشرق والشمال

والجنوب ، وتقع على هذا الجبل بعض أحياء المدينة ، فالتلة الشمالية الغربية في صفد تعد صدراً جنوبياً لسفح جبل كنفان ، وهي أدم بقعة مشحورة في صفد . ترتفع أعلى نقطة في جبل كنفان (٩٤٥) م عن مستوى سطح البحر ، وإلى الغرب من الجبل يقع جبل "بيرا" الذي يرتفع (٩٥٠) م .

تبلغ مساحة الجبل حوالي عشرين ألف دونم ، وهو محدد عرضاً من مدينة صفد إلى قرية الجعونة العربية (حالياً عشتاريت) ، وطولاً من وادي فرعم إلى قرية جب يوسف الواقعة جنوبي شرق صفد . ويطل الجبل على مناظر واسعة وجميلة تشمل جزءاً من فلسطين ، سوريا ، شرق الأردن ولبنان ، فالواقف على ذروته يستطيع رؤية جبل الكرمل وجبال السيلة والبلقاء ويكلون وحمورات وجبل الدروز والجولان وسهل الحولة وجبل الشيخ وأقليم البلان وصحراً عظيماً من بلاد بشارة كما يرى الجزء الجنوبي من لبنان . لموقعه ذو أهمية استراتيجية عظيمة لماله من دور في الاشراف على الحدود الشمالية لفلسطين ، كما أن موقعه مهم بالنسبة لمدينة صفد نفسها إذ يظهر تاريخه المرمية أن الاستيلاء على قلعة صفد كان

يتم بعد السيطرة على الجبل .

ان أكثر من ربع مساحة الجبل اراضي زراعية ، زرعها الفلاحون من صفد وقراها سنية طويلة ، والباقى من مساحة كانت اراضي عطل استعملت حراش وتحتفظ وتستنبت لاعمال صفد وقراها . فهو ذو اهمية اقتصادية للمدينة الى جانب اهمية الاستراتيجية .

وجعل كنفان وقف اسلامي صحيح اوقفه السلطان العثماني سليم الاول عام ٩٤٤ هـ - ١٥٣٧ م على رؤية الصلوة الاسدية في مدينة صفد ، بعد ان تسنى له طرد المماليك والقضاء على حكمهم للبلاد عام ٩٢٥ هـ . ثم اخذت معركة حرج دابحة . وجعل السلطان سليم التولية على هذا الوقف للشيخ محمد الاسدي شيخ الزاوية آنذاك ، وصار يعقود للاستاذ فالارشد من نسله وذريته ، بشرط صرف غلة على مصالح الزاوية المختلفة ، وما خاضع عنه ذلك فيصرف على المستحقين من ذرية المتولي المذكور .

وصب قاضون الاراضي العثماني المستمد من الشريعة الاسلامية فان ارض الوقف السليم لا يباع ولا يوهب ولا تغير ملكيتها ولا يجوز لاحد ان يغيرها بخلاف شروط الوقف . بيد ان تجاوزات عدة لهذا القاضية حصلت في العهد العثماني ، كان احدها في جبل كنفان . ففي عام ١٨٨٠ م وبعد صدور قانون الاراضي الشهير ١٨٦٠ م وبدء عمليات التسجيل (الطابو) استلخ اربعة من اهالي صفد وكاد تسجيل جزء من اراضي الجبل باسمائهم وهي مواقع فرق ظاهرية الفوقا ، العتيقة والحراء . وقام هؤلاء الاربعة عام ١٨٩٥ ببيع هذه المواقع لليهود ، وحصلت واحدة من هذه القطع باسم "الجبل" وصاعتها ٢٨٠٠ دهم ثم تحددت رصيف لهذا الجبل . وجعل المشترون اليهود على كواشيت طابو عثمانية بهذه المواقع .

وعندما سارع الانتداب البريطاني عام ١٩٢٨ بعمليات تسوية اراضي فلسطين ، نظمت شركة البيكا (الجمعية اليهودية للاستيطان في فلسطين) خريطة تشمل جميع الاراضي المعروفة "جبل كنفان" او "ارض كنفان" واستطاعت ختم هذه الخريطة من متولي وقف الجبل احمد الاسدي ومخائير ووجهه قريه يريا ، بحبرة والتزغرية المتجاورين لاراضي الجبل وشعار صفد وورثة البائع خالدة قدورة ، حسب مراد دمقي مدينة صفد الشيخ اسعد قدورة الذي كان والده محمد الكاج يوسف احد البائعين الاربعة . وبموجب هذه الحدود المنطقية بالخريطة المصدقة ادخلت الجمعية ثمانية الاف دهم من اراضي الجبل لم تكن داخلية في كواشيتهم الاصلي ، وقد صاها هذه الخريطة لدائرة الطابو وقالوا انها تشمل ثلاثة مواقع يملكونها في الظاهرية الفوقا والعتيقة والحراء وانه مجموع هذه المواقع الثلاثة يؤول ما يسمى في طرف المتجاورين واهل البلاد "ارض كنعان" . وقد استمرت معاملة الطابو من بداية عام ١٩٢٨ وحتى نهاية . وطوال هذه المدة بقيت الامور مكتومة عند سكان المدينة ، فلا الذين وقعوا على الخريطة المعلوم بالامر ، ولا بحثت الكوصة بينهم لتتقن عما اذا كان هناك نزاع على هذه الاراضي ام لا .

ويبدو ان الحكومة كانت تتوافق مع اليهود لتسهيل استيطانهم على الارض ، فدير الطابو العمومي (انجلترا)
عنه لجنة عهد اليها اصرار البنت على اراضي الجبل وعما اذا كانت كواشيه شركة البكا تنطبق عليها وعما
اذا كان احد ينايرج البكا ملكية هذه الاراضي ام لا . وكانت هذه اللجنة مؤلفة بخاصها من لجنة
موظفين يهود :

الاول : قاضيهم صند المستر برجمه مندوباً عن الادارة الحكومية .

الثاني : موظف الطابو المستر فيشمه ر ر دائرة التسجيل .

الثالث : موظف الامراج الخواجة كراد ر ر الزراية .

الرابع : الخامس : فامور الطابو الخواجة ر ر و كاتبة ^{مندوباً} عنه دائرة الطابو .

واستأنت شركة البكا بعد سنة ١٩٢٨ م . بفتح ارض الجبل ووضع حدود بسيطة ، كانت جارة مع
خطوط من اجار صغيرة تفصل الحدود لا تمنع مرور الحيوان او الانسان . وانتقلت بعد ذلك الى
تثبيت هذه الحدود بالادناد الحديدية ، ثم زرعت بعض الاشجار وفتحت عدة آبار . وتمكنت بهذه
الطريقة من تثبيت تصرفها في بعض اجزاء من الجبل تمهيداً لتسجيلها باسمها في عملية التسوية ،
دوم ان يدري اهالي صند بما يجري ، بل انه لم يكن احد منهم يعلم بوجود الطابو والخرطة
على الارض .

وقامت في اوائل عام ١٩٢٤ منازعات بين بعض العرب وبينه اليهود على مواقع من الجبل في سفح
جبل ابي ربيعة الواقع في القسم الشمالي من جبل كنفان . وقد اهتم الرأي العام في صند في هذه
القضية اهتماماً بالغاً . وفي اثناء المحكمة لحسم المنازعات ابرز الظن اليهودي الخريفة المصدرة
وصيود الطابو ، فشاع الامر في المدينة ، وخرجت القضية من اطار الصراع على ضائق في سفح ابي
ربيعة الى اطار الصراع على الجبل بأكمله . وتشكلت في المدينة تلقائياً مجموعة وطنية من
اهالي صند اخذت على عاتقها مهمة متابعة القضية ومنع تسرب الجبل لليهود ، وكان يقف على
رأس هذه المجموعة الطامي صبحي الحضراء الذي كان وقتها مأموراً لادخاخ صند ومضواً
مؤسسين في حزب الاستقلال العربي . وبسبب الاحتجاج صالة التوافيق العربية على الخريفة
عزلت عائلة الاسري المتولي وعينت آخر مكانه .

وبدأ الطامي الحضراء بدراسة القضية بعد الحصول على الخريفة ويهود الطابو مع الطامي عوني عبد الهادي ،
ووجد الاثنان ان صعوبة في القضية ناجمة في معظمها عن سوء تصرف المتولي احمد الاسري وخيانة
للوصف عنه توافيق الاشخاص المذكورة سابقاً على الخريفة . ورأى الطاميان ان من الافضل
للقضية دفع اللادخاخ اليهود الى رفع الدعوى على الوقف الاسلامي وذلك اصحاب المرامي في الجبل ، ليكون
الطرف العربي في مركز المدعى عليه في محكمة الاراضي بدلاً من ان يكون مدعياً . واخذ الحضراء
بشجع المتولي الجديد عبد الفتاح الاسري واصحاب الاستحقاق من آل الاسري على التصرف بأراضي الجبل

« و نشأ بسبب ذلك صراعاً فرعياً كثيرة بين اليهود والعرب ، أفلام اليهود عدة صفاتاً هيأته كل أفراد من العرب . واستفاد اليهود من النشغال اهالي صفد العرب في الانتخابات البلدية عام ١٩٢٤ . واحتلوا منهم بعضهم بعضاً فأنشأوا بضعه عشر بيتاً في مواقع صنيعة وشرفة من الجبل لتثبيت نفوذهم فيها . وحاول الحفزا وقف البناء فيها ففني حينا بواسطة حاكم اللواء الشمالي ولكنه اليهود عادوا واضعوا الحاكم بعدم قانونية التعرض لهم فنزل عند طلبهم وسحب لهم باستئناف البناء .

وفي تشرين الاول من العام نفسه حصل نزاع على قطعة ارض تبليغ صاعقتها التي دتم ، وتقع في منتصف الجبل وضعت مقام اسلامي لولي الله تعالى " محمد بن حديد " . وخدم البوليس كقريباً لحاكم اللواء حول النزاع خلاصته ان استمرار النزاع بين العرب واليهود على ارض الجبل سيؤدي الى الاخلال بالامن العام . وبناءً عليه قرر حاكم اللواء الشمالي اخذ القضية بيده ، وعينه جلسة للفرع في ١٠/١٠/١٩٢٤ استمع فيها لبيانات الطرفين . وتأجلت القضية يوم ٢٤ من الشهر نفسه . وقبل انعقاد الجلسة الثانية حاول اليهود زيادة مساحة الارض التي تصرفون بها لتثبيت سيطرتهم عليها امام الحاكم ، فذهبوا ليلاً بهد من آلات النجارة الى الاراضي المتنازع عليها والتي صدر امر الحاكم للفرع بعدم التعرض فيها . ولكن اضطرار الامر وعلم اهالي صفد بوجود اليهود ليلاً على الجبل ادى الى حدوث صدام بين الطرفين في الموقع نزل اليهود طائفة المكان وكاد يحدث استيلاء بين العرب والبوليس الانكليزي . وعينه عاد الاهالي الى صفد انقلعت مظاهرات كبيرة اخترق شوارع المدينة بالهتافات الوطنية . وادركت الكوفة بعد هذا الحادث بان القضية تطورت الى نطاق واسع وانها لا تخص آل الاسر فقط وانما اهالي صفد جميعاً . خالف حاكم اللواء امره الاول في القضية واصر امره الجديداً شمل فيه كامل جبل كفنان ونزع حكمة العرب واليهود عنه وعينه قائم مقام صفد مديراً لادارة الجبل . واستثنى من هذا القرار امره :

(١) يمكن لليهود ان يكلوا البيوت التي بدؤوا بها وانه يجرؤوا البساتين المشجرة . ولكن لا يمكن ان يجرؤوا ارضاً جديدة او يبنوا بيتاً جديداً او يسحوا الارض او يسبحوها .

(٢) يمكن للعرب ان يجرؤوا حاشيتهم في جميع اتحاد الجبل كالمصناد .

وعينه الحاكم جلسة لرؤية الدعوى في ١٢/١٠/١٩٢٤ . وتوجه الحاكم الحفزا بآم اهالي صفد الى المجلس الاسلامي للاسالي طالباً مساعدته في هذه القضية وذلك بعهده هذه الدعوى والاعاق عليها وكتب الحفزا في تقريره منذ الموضع للمجلس بانه " يتوقف على نجاحها حياة وصنعتي مدينة وكذا عمرها " . واتخذ المجلس الاكل قراره بعد انه درس التقارير المرفوعة اليه حول القضية باسداد المساعدات الادبية المطلوبة وتليف المتولي امرة صحابي قدير محقق في القضية التي اخرجت درجت من درجات الحاكم كل ان ترد السلفة بعد اكتاب الدعوى من ارج الوقف .

واصدر حاكم اللواء الشمالي قراره في القضية بموجب قانون منازعات وضع اليه لسنة ٢٠ - ١٩٢٤ اهالي اليهود ، فقد وضع ايديهم على قطعتيه من القطع المتنازع عليها وابقى سنة قطع اخرى تحت يد

القاضى مقام - وحيث درس ثلاثة من المحامين العرب هم عوني عبد الهادي ، فؤاد طه الله وجميعي الخضراء هذا القرار وحبوه بحجف بحقوق الاوقاف الاسلامية ومخالف للبيانات التي قدمت للمحكمة . وبناء على قرار المحكمة فان مأمور السوية سينظر في امر القطع السنة التي بقيت تحت اذمة القاضى مقام اليهودي . وفي ١٩٨٥/١/٢٤ عقدت الاوقاف اتفاقية مع المحامي كادل زعيمير ليعتوم بالدفاع عن حقوقها امام مأمور السوية والى آخره راجعة عن درجات المحكمة . واستئنيت من اراضي الجبل المنقطة الملاصقة لمدينة صفد والتي يزرعها آل الاسري ولا يبايعونها اليهود في ملكيتها وعاحتها التي درغم ورغم ان اليهود باعتادهم لآل الاسري بحجف السقف في هذه القطعة ليعتفون ضمناً بوقفية الجبل وحقوق الاوقاف الاسلامية فيه بما فيه القطع المتنازع عليها ، الا ان مأمور السوية^(٥) اصدر قراره في القضية ضد مصلحة الوقف ، واستئناف صاحبي الوقف هذا القرار لدى محكمة الاستئناف العليا . وكان المأمور المستر اوكونر قد اصدر جدول الحقوق في اراضي الجبل بتاريخ ١٩٨٧/١/٢٤ وفي ١٩٨٧/٢/١٩ اذنه قاضي القضاة للاوقاف بالاستئناف وبقيت القضية دون حسم حتى منازاة الانتخاب البرلماني في فلسطين

الملاحظات والمراجع :

- (١) من الكتب الانجليزية الهامة حول الموضوع كتاب : Kenneth W. Stein
The Land Question in Palestine 1917-1937
The University of North Carolina Press. Chapel Hill and London
April, 1985.
ومن الكتب العربية القيمة مقالة د. غازي فلاح : تحليل خارطة الايباك اليهودي للأرض في فلسطين (١٩١٤ - ١٩٤٨) . المواقف المجلد (٢) ، العددان ٦١٥ / ٦١٦ - حزيران ١٩٨٥ .
- (٢) يعتمد المقال على صلف وثائقي خاص بقضية جبل كفان ، محفوظ في قسم احياء التراث الاسلامي في القدس ، وهو من اوراق المجلس الاسلامي الاكبر ويحمل الرقم (١١/٢٤/٢، ١/٧/٢/٧) .
- (٣) تأسست المحكمة سنة ١٩٤٤ ، ويبدو انها استلكت من المثلية اليهود اجزاء من القطع . عن هذه الجمعية راجع الموسوعة الفلسطينية ج ٢ ، ص ٧٣ .
- (٤) يؤكد المؤرخ النابلسي احسان القر في مذكراته (مطبعة الفجر ، نابلس ، ٢٠٠٢ ص ٩٢ - ٩٤) ان الشيخ قدوة قد وقع على الخريفة ويقول ان مفتي عكا الشيخ عبد الله الجزار

بمرء الامر بأنه لم يكن لليهود دولة في فلسطين ~~والتي كانت تحت حكمها~~ خلافاً لادعى النوف من القضية .

(٥) كان لأمور السوية ومعظمهم من الصيوديين الزمة علواً مع لجات الانتخاب في دائرة المساحة
وتنوي الأراضي ، وكان لهم دور كبير في تسهيل استيلاء الصيوديين على الأراضي .
راجع الموسوعة الفلسطينية ج ١ ص ١٧٩ .